الفصل الثامن

انتصار الإنسان فى جنوب لبنان

لا يتعامل الإنسان مع واقعة بشكل مادى مباشر، وإنما يتعامل معه من خلال مجموعة من الأفكار والرموز والأساطير. وقد أصبحت الصور المجازية والأساطير جزءًا أساسيًا من الحروب الدائرة فى العالم، خاصة فى عصر الإعلام. إذ يبحث كل فريق مقاتل عن مجموعة من الشعارات والصور المجازية التى يبرر بها موقفه ويسبغ عليه قدرًا من الشرعية. وحينما ظهر رجل أوربا النهم (أى الاستعمار الغربى) وتفتحت شهيته وقرر التهام العالم وجد أن عليه أن يستخدم مجموعة من الصور المجازية والأساطير فأطلق على الدولة العثمانية اصطلاح «رجل أوربا المريض» أى أنه حولها من خلال صورته المجازية إلى رجل مريض ميئوس من حالته سيتحول إلى جيفة ميتة بعد قليل، ولا غضاضة بطبيعة الحال فى اقتسام الجيفة، بل إن هذا يُعد خدمة للإنسانية المعذبة!

جغرافيا بلا تاريخ

وقد ورث الصهاينة هذا الإجراء الواعى أحيانًا، وغير الواعى أحيانًا أخرى، وصعّدوا منه، خاصةً وأن اليهود وإسرائيل وفلسطين وصهيون هى مفردات أساسية فى الميراث الدينى الغربى، ولذا نجد أن الصهاينة قد

أحاطو فلسطين بدخان كثيف من الأساطير، صدَّقه بعضنا، فقد أشاروا إلى فلسطين باعتبارها «أرضا بلا شعب» (يمكن للصهاينة شراؤها وتفريغ سكانها منها) ولذا أشاروا إلى وطننا العربى باعتباره «الشرق الأوسط» ثم «المنطقة» وحسب، أى أنه تم إدراك كل شىء بحسبانه مكانًا لا زمان له، جغرافيا بلا تاريخ، شىء بلا ذاكرة، كل هذا جعل الشرق العربى منطقة يمكن للجيوش الصهيونية أن تصول وتجول فيها دفاعًا عن «أمنها» و«حقوقها» وأصبح العرب مفعولاً به لا فاعلاً، فالفاعل هو الصهاينةوجنودهم المقاتلون الشرسون، بل إن الجماعات اليهودية فى العالم (التى يُشار إليها باعتبار الشعب اليهودى) أصبحت جماعة من البشر يدور تاريخها حول المكان، فهو تعبير عن الرغبة فى العودة إلى فلسطين «إرتس يسرائيل» ، مكان توقف فيه التاريخ، ولذا فهو ينتظر عودتهم بفارغ الصبر.

وإنكار الزمان هى إحدى سمات العقل الصهيونى الذى يحول الزمان (حيث يتحرك الإنسان ويحقق الإنسان إنسانيته أو يجهضها وحيث يمارس حريته وإرادته) إلى مكان مصمت. والزمان بالنسبة للعربى هو الحيز الذى يمكنه أن ينهض فيه ويحرر أرضه ونفسه، ولذا فالعقل الصهيونى يمقت الزمان ويؤثر أن يتحرك فى المكان. وقد تُرجمت هذه الرؤية إلى عدة صور مجازية: فالدولة الصهيونية تارة «حائط فى آسيا لحماية أوربا» و«حصنا منيعًا للحضارة الغربية فى وجه الهمجية» (عبء الرجل الأبيض الصهيونى!)، وهى تارة أخرى «الحارس الغربى فى المنطقة». وفى لحظات الصدق تُستخدم صورة «كلب الحراسة: رأسه فى

واشنطن وذيله فى القدس»، أى أنه كلب حراسة لا عقل له، أو أن عقله فى واشنطن، فهى التى تفكر، وهى التى تمد الكلب بالحياة، أما ذيله التنفيذى فهو هنا فى وسطنا فى عالمنا العربى. وبالطبع هناك الصور المجازية الأكثر وضوحًا مثل«إسرائيل باعتبارها حاملة طائرات»، وقد صاحب هذا مجموعة من الصور المجازية الأخرى مثل جيش إسرائيل باعتباره الذراع الطويلة التى تصل إلى أى مكان، والقوة الباطشة الأسطورية التى لا تُقهر، والصهيونى باعتباره المقاتل الشرس الذى لايُهزم، والذى يدافع عن أرضه بشراسة، ويلاحظ أن كل الصور المجازية هنا تُسقط الآخر العربى باعتباره وجودًا يتحدى الوجود الصهيونى وتُسقط عنصر الزمان والتاريخ باعتبارهما المجال الذى يعبِّر فيه الآخر العربى عن نفسه.

فى هذا الإطار تأسست نظرية الأمن الإسرائيلية المبنية على المكان والتى تنكر الزمان، وأصبحت المشكلة الأمنية بالنسبة للصهاينة مسألة حدود جغرافية آمنة وأراض يتم الإستيلاء عليها، وسكان يتم ضربهم بيدٍ من حديد. وفى هذا الإطار تُصور الصهاينة أنهم يمكنهم حل كل مشاكل المستوطن الصهيونى الأمنية، ومع نكسة عام ١٩٦٧ تدَّعم هذا الاتجاه تمامًا، فأعلن الصهاينة أنهم وصلوا للحدوم الآمنة، والحدود الدائمة، وأنهم سيمكثون هناك إلى أن يقوم العرب بالتسليم، كان خط بارليف هو بلورة لهذا الوقف وأيَّدهم العالم الغربى فى موقفهم هذا، فقد أحسوا أن الزمن قد قُتل، وأن التاريخ العربى والصراع العربى الإسرائيلى قد وصلا إلى نهايتهما!

ومن الأساطير الأساسية الأولى التى صدّقها الإسرائيليون والتى ورثوها من ترسانة الأفكار الإمبريالية الغربية، هى الإيمان بأن القوة قادرة على تحقيق أى شىء، فالعالم، فى نهاية الأمر، يشبه الغابة، وقد ترجم هذا نفسه إلى ما سماه موشيه ديان «خلق الحقائق»، أى أن تغتصب الأرض بالقوة وبمضى الوقت يصبح الاغتصاب حقيقة قائمة على الجميع الاعتراف بها والتعامل معها، هكذا فعلوا فى فلسطين بأسرها، وفى مناطق أخرى من العالم العربى.

والتوسعية الصهيونية هى إحدى تجليات مفهوم العالم كغابة هذا، والقوة كآلية وحيدة لحسم الصراع، ولذا مع وجود الآلة العسكرية الصهيونية لم لا يمتد الوطن « القومى» من النيل إلى الفرات؟ (كما صرح الحاخام فيشمان عضو الوكالة اليهودية فى أربعينيات القرن الماضى)، وكما بين أورى أفنيرى أن ما يحرك الصهاينة ليس الدافع العقائدى وإنما موازين القوى وحسب، ولذا فالتوسع الصهيونى لم يتوقف ما دام هناك فراغ بسبب الغياب العربى، وقد تمدد الصهاينة وتوسعوا ليملأوا الفراغ فى جنوب لبنان وليخلقوا حقائق صلبة جديدة فيه.

والرؤية المتمركزة حول المكان قد ترجمت نفسها إلى أسطورة ماسادا، و«ماسادا» كلمة آرامية تعنى «القلعة»، وكانت توجد بها حامية رومانية هاجمها بعض المتمردين اليهود عام ٦٦ ميلادية إبان التمرد اليهودى ضد الإمبراطورية الرومانية واستولوا عليها وذبحوا كل أعضائها. وقد أخمد

الرومان التمرد وقاموا بحصار القلعة، وتقول الأسطورة: إنه بدلاً من الاستسلام والوقوع أسرى فى أيدى الرومان آثر اليهود ممارسة انتحار جماعى. وقد ثبت كذب هذه القصة، ومع هذا تقوم أجهزة الإعلام الإسرائيلى بمحاصرة العقلية الإسرائيلية واليهودية بأسطورة ماسادا؛ ففى كل عام تُقيم بعض أسلحة الجيش الإسرائيلى احتفالات تردد يمين الولاء على قمة القلعة ويقسمون فى نهايته بأن ماسادا لن تسقط ثانية.

وقد أضفنا نحن من عندنا أسطورة يهودى البروتوكولات، وهو شيطان يوجد خارج الزمان، قادر على تحريك العالم بأسره، وزرع الفساد فى ربوعه وإسقاط الحكومات وتوجيهها حسبما يريد، والسيطرة على الإعلام وحركة رؤوس الأموال، ونلاحظ أنه إذا كان اليهودى بهذه القوة فلا يوجد ما نفعله سوى الاستسلام، أو الفرار، لأن الحرب ضد مثل هذا الشيطان هو من قبيل الانتحار! فكل من البروتوكولات (المعادية لليهود) وماسادا (الصهيونية) يتفقان فى عدم جدوى الجهاد وضرورة الاستسلام.

وحينما وصلت القوات الإسرائيلية إلى بيروت أرسلت رسالة واضحة عالية إلى كل الدول العربية: إنها على أتم استعداد أن تذهب إلى أقصى حد كى تحقق أهدافها الصهيونية بما فى ذلك احتلال العواصم العربية، وإن الولايات المتحدة على أتم استعداد أن تؤازر إسرائيل فى مطامعها وبطشها. وما بين المطامع الصهيونية والقوة العسكرية الإسرائيلية والمظلة

الأمريكية واللوبى الصهيونى لا يملك العرب بطبيعة الحال إلا التفاوض والاستسلام، أليس كذلك؟

بعث روح المقاومة

ولكن ما حدث فى جنوب لبنان هزم كل هذه الأساطير وقضى عليها، والانتصار اللبنانى على إسرائيل يوجب علينا أولا وأخيرا أن ننظر بطريقة جديدة للصراع العربى الإسرائيلى إن كان فينا بقية من روح ووعى وضمير، لنؤكد للعدو أننا لسنا أمواتًا، وإنما يوجد جسد وروح وإرادة وعزيمة ورغبة فى الاستشهاد فى سبيل الله والوطن. وأن تاريخنا لم ينته، وأن الحياة تدب فى أرواحنا، وأن روح المقاومة تسرى فينا، وأن إمكانية هزيمة الآلة العسكرية الاستخبارية الإسرائيلية (التى تساندها آلة الولايات المتحدة و الغرب) إمكانية حقيقية.

ولنبدأ أولاً بوضع هذا النصر الأخير فى إطاره الحقيقى، هو نصر باهر لاشك فيه، رفع رؤوسنا جميعًا، ولكنه ليس هو الوحيد، فهو ليس مجرد فلتة (كما يحلو لبعض الصهاينة أن يردوا حتى يطمئنوا أنفسهم، وكما يحلوا لبعض المهزومين من العرب أن يفعلوا حتى يحتفظوا بتوازنهم ويستمرا فيما هم فيه من غيبوبة واستسلام). إن انتصار المقاومة فى لبنان هو جزء من نمط متكرر، فنحن فى حربنا مع العدو ننتصر وننكسر، وننكسر وننتصر،ولكننا والحمد لله لانستسلم، وما لاشك فيه أن هناك العديد من الانكسارات التى نعرفها جميعًا لكن هناك أيضا انتصارات قبل

وبعد ١٩٤٨ يجب ألا ننساها. يجب أن نتذكر أن أطول حركة عصيان مدنى فى التاريخ وقعت فى فلسطين فى منتصف الثلاثينيات من القرن الماضى وغير ذلك من البطولات الفردية والجماعية. أما بعد ١٩٤٨، فلم تهدأ المقاومة قط ولكنها أخذت شكلاً أكثر تبلورًا فى أعمال المقاومة إبتداءً من عام ١٩٦٥ ثم معركة الكرامة فحرب الاستنزاف فانتصار عام ١٩٧٣ فالانتفاضة المجيدة عام ١٩٨٧ فانتفاضة الأقصى ٢٠٠٠.

إن تكرار النمط هو تأكيد لإمكانية الانتصار الأخير بإذنه الله، ويجب ألا ندع آلة الإعلام الصهيونية ترسخ فى وجداننا غير ذلك، وانتصار حزب الله يؤكد هذا النمط ويبعث فكرة المقاومة مرة أخرى، فيرى الناس إمكانية الجهاد وإمكانية هزيمة الآلة العسكرية الاستخبارية الإسرائيلية التى تساندها الآلة الأمريكية والغربية بأسرها.

وفى محاولة لتبرير موقف الإسرائيليين تقول مجلة تايم «إن الإنسحاب وضع نهاية لاحتلال لا معنى له استمر لمدة ثمانية عشر عامًا، وأودى بحياة مئات الجنود الإسرائيليين. فلقد استمرت إسرائيل فى احتلال لبنان حتى تحارب حزب الله، وحزب الله حارب ضد إسرائيل لأنه بقى فى لبنان». وهذه أكذوبة، فدخول إسرائيل للبنان لم يكن للحرب ضد حزب الله وإنما لتحقيق الأهداف الأستراتيجية الاسرائيلية الغربية، وهى تفتيت العالم العربى ابتداءً من لبنان، وحزب الله بدوره لايحارب ضد إسرائيل لأنها فى جنوب لبنان وحسب، فالمسألة أعمق من ذلك بكثير.

فن تجفيف المستنقعات

وقد تأمل الإسرائيليون كثيرًا فى أسباب انتصار المقاومة اللبنانية، وكعادتهم فروا المسألة بطريقة مكانية حتى لا يدركوا البعد التاريخى لهذا النصر، ولنترك باراك يتحدث، يقول هذا العنصرى القديم، الذى تنكَّر فى زي امرأة واغتال بعض القيادات الفلسطينية فى لبنان وترأس فريق المستعرفيم (المستعربين) الذى كان يتنكَّر فى زى عربى ويذهب إلى الأسواق الفلسطينية ويغتال بعض نشيطى الانتفاضة: «إن الحرب ضد الإرهاب مثل الحرب ضد البعوض، يمكن أن تطارد البعوضة تلو الأخرى، ولكنها حرب ليست مجدية من ناحية التكلفة»، ولنلاحظ أن الصورة المجازية هنا تحاول أن تحقق عدة أمور: التقليل من شأن المقاومة، وتحويلها إلى شيء لا قيمة له، بل ضارة، يجب التخلص منه وإبادته وإعطاء مبرر للصهاينة للانسحاب، فالمسألة بالنسبة له مسألة تكلفة لا أكثر ولا أقل.

ولكن الزمان يتسلل إلى خطابة، رغم أنفه، فحينما سأله مندوب مجلة تايم لِمَ لَمْ تطالب بالانسحاب من لبنان حينما كنت رئيسًا للأركان؟ اضطر باراك أن ينطق بالحقيقة، فالمسألة قد تكون مسألة تكلفة ولكنها مسألة تكلفة «متصاعدة»، تبين أن العرب يتعلمون ويستفيدون ويطورون أنفسهم، يقول باراك: إنه لم ينسحب حينما كان رئيسًا للأركان لأن الأمر لم يكن ناضجًا «حينذاك»، وكل من «متصاعدة» و«حينذاك» تفتحان الباب على مصراعيه للزمان، إذ إن باراك يعترف أن حزب الله قد نضج

بمرور الزمن، وكيف كان ذلك؟ «لقد قطع حزب الله مسافة طويلة منذ ذلك الوقت، مما اضطرنا لأن نزيد من استعدادنا وانتهى بنا الأمر بأن أصبح عندنا عربات مصفحة ضد متفجرات من عيار ٥٠ ك ج ، وهذا وحش كاسر حينما بدأنا كنا ندافع عن سياراتنا ضد الألغام، واللغم عبارة عن ٤,٥ كجم من المتفجرات، فوضعوا لغمين، الواحد مع الآخر، مما اضطرنا إلى أن نجعل سياراتنا أكثر تحصينًا، فابتخدموا أسلحة أكثر تطورًا من بينها صواريخTOWوهى تصيب أهدافها بدقة، فتجد نفسك متورطًا فى حرب متقدمة للغاية تتطلب الكثير من التكاليف. فبكل بساطة رغم أننا كانت يدنا هى اليد الطولى،إلا أن الموقف كان يتدهور بشكل حلزونى إلى أسفل ويؤدى إلى سحبنا بشكل أعمق وأعمق فىالوحل»، رغم أن باراك لايستطيع أن يتخلى عن عنصريته وخيلائه (فهو لوّ فعل لظهر عاريًا أمام نفسه وأمام العالم: القائد المهزوم) ولذا نجده يطعّم خطابه بعبارات مثل «اليد الطولى»و«الوحل» ولكن الرسالة التاريخية الزمنية قد وصلته، واعترف بها رغم كل محاولاته أن يخبئها ويتملص منها.

ذكر باراك أن حزب الله استخدم أساليب قتالية متطورة تكتيكات عديدة، ولكنه لم يذكر جوانب أخرى، تّذكّر الدارس بانتفاضة١٩٨٧، وأهمها أن المواجهة لم تتم بين الجيش الغازى ومجموعة صغيرة من المقاتلين تم تدريبهم بكفاءة، وإنما تمت بين الجيش الإسرائيلى الغازى والكتلة البشرية اللبنانية بأسرها ومن ضمنها النخبة المقاتلة، وأن هذا مكنها من تحقيق قدر عال من التماسك جعل من الاختراق مسألة

مستحيلة وزاد من ثقة المقاومة بنفسها فاستطاعت هى من اختراق العدو واستخدام أحدث وسائل الدعاية والاستخبارات، وهذا ماحدث تمامًا إبَّان الانتفاضة، وهذا ما حقق لها قدرًا كبيرًا من الاستمرار والنجاح، فأمام مثل هذا الحائط البشرى التاريخى ماذا يمكن للعدو أن يفعل؟

لقد تحولت «الحدود الآمنة» و«الحزام الآمنى» إلى «مستنقع» و«كابوس» و«مأساة» (هذه كلها صور مجازية إسرائيلية). وحتى يُسكت معارضيه استشهد باراك بمناحم بيجين الذى قال: «إن لبنان مأساة، لايمكن تحملها»، ثم أضاف أن بيجين بعد اكتشافه هذا ضرب على نفسه العزلة إلى أن مات كمدًا (حينما ذكرت وقتها ذلك فى إحدى مقالاتى تهكم أحد الواقعيين العرب علىّ، وأخبرنى أن الرجل مات حزنًا على زوجته، وأتهمنى بمرض التفاؤل الثورى وعدم تقبل واقع الاحتلال.. السرطانى).

إن «المستنقع اللبنانى» أصبح صورة مجازية أساسية فى الوجدان الإسرائيلى (بعد أن كانوا فى الماضى يتباهون بأنهم جاءوا إلى فلسطين فوجدوها مستنقعات وصحارى، فجففوا المستنقعات وزرعوا الصحارى)، ولكن باراك، مثل معظم الكذابين، يفقد أحيانًا سيطرته على الصور المجازية التى يستخدمها كسحابة دخان لتغطية رؤيته الحقيقية فتفضحه بدلاً من أن تستره، فيقول: «إن منهجنا هو تجفيف المستنقع» [عن طريق الانسحاب]، ولكن إذا كان الانسحاب هو تجفيف المستنقع، فالماء الراكد

إذن هو جيش الغزو الصهيونى، وجنوده هم البعوض، أليس كذلك؟. ثم ينطق باراك بالحق، «لم أر قوة عسكرية أضيحت أكثر قوة، أو أى أمة أكثر ثقة بنفسها، بأن حاربت ضد رجال العصابات المقاتلة فى بلد آخر».ويقر باراك: «أن القيادة لابد أن تنظر للواقع بعيون مفتوحة، حتى لو كان هناك شىء من القسوة فى ذلك» فيقرر الانسحاب. ولكن ما هى القسوة فى أن ينسحب صاحب اليد الطولى الذى يطارد البعوض؟ القسوة تكمن فى أن البعوض ليس بعوضًا، وإنما مقاومة حاولت ونجحت فى تحرير الأراضى المحتلة، وأنها تمثل أنبل القيم الإنسانية، وأن صاحب اليد الطولى هو جيش مستعمر قطعت يده أو حرقت أصابعه، فولى الأدبار، وقد بدأ يدرك أنه جيش استعمارى ظالم يمثل أخس ما فى الإنسان.

إن إفرايم سنيه كان أكثر دقة وأمانة فى وصفه للواقع الإسرائيلى حينما قال: «نحن نفضل كوليرا الانسحاب على سرطان وطاعون بقاء الاحتلال»، فصورة المرض المجازى تُستخدم هنا لوصف كل من الاحتلال والانسحاب، فبقاء القوات الإسرائيلية مرض وانسحابها مرض، والاختيار هنا بين الأمرين أو المرضين، ولكن علينا نحن العرب أن نتذكر أن ما حوّل الاحتلال من نزهة خلوية إلى كوليرا هو مقاتلو حزب الله.

محاولة توظيف الانسحاب

ويفترض الإسرائيليون – كما أسلفنا – أن العرب مفعول به، يمكن تحريكهم كما يشاء المستعمر الصهيونين ويمكن القول بأن المشروع

الصهيونى ككل يستند إلى هذا التصور، أليست نقطة الانطلاق هى الغياب العربى؟ فلو أن العرب موجودون بالفعل، فهل هناك مجال للوجود الصهيونى؟ أليست فلسطين أرضًا بلا شعب؟ وأليس وطننا العربى مجرد «منطقة»، مكان بلا زمان وجغرافيا بلا تاريخ، ومساحة يتحرك عليها بشر لايمكن أن يُحسب لهم حساب ؟

ولذا تصور الإسرائيليون أنهم بانسحابهم سيحققون عدة أشياء من بينها أنهم سيعطون العالم صورة إيجابية عن أنفسهم، فهم يمتثلون لقرار هيئة الأمم٤٢٥باعتبارهم جماعة متحضرة. ولكن من يمكن أن يصدق مثل هذه الأكذوبة/النكتة، تنفيذ القرار بعد مرور٢٢عاما، هكذا وبدون مقدمات؟هل استيقظ الضمير الإسرائيلى فجأة،وبث الله النور فى صدورهم؟

ولكن العالم كله يعرف أن هناك أجندة خفية، فالتصور الإسرائيلى للمنطقة هى أن تُقسَّم إلى دويلات إثنية وعرقية ودينية متنافرة متناحرة (دولة كردية – دولة شيعية – دولة سنية – دولة مارونية، وهكذا)، ومن ثم يمكن لإسرائيل أن تكون الدولة القائدة. وكان التصور الإسرائيلى أن لبنان هى أكثر دولة مرشحة للتقسيم وتجربة الحزام الأمنى كانت فى تصورهم هى البداية. ورغم فشلهم فى ذلك (فالمقاومة الإسلامية فى لبنان كانت تضم مسلمين ومسيحيين، إيمانيين وعلمانيين، تمامًا مثل جيش لحد العميل، فهو لم يكن جيشًا، مسيحيًا، كما يحلو للبعض أن يروجوا، وإنما كان لفيفًا من نفاية المجتمع اللبنانى ككل)، نقول رغم فشلهم إلا أن الصهاينة لا يتعلمون من التاريخ (وكيف يتعلمون منه وهم

ينكرونه)،ولذا فهم لايزالون يتصورون أنهم بانسحابهم يمكنهم زرع الفرقة فى لبنان وأن يجعلوه يسقط صريع الفتنة الطائفية بين المسلمين والمسيحيين وبين الشيعة والسنة... إلخ،وأنهم يمكنهم أن يصعدوا الخلافات بين الجيش اللبنانى والمقاومة بأن يصروا على ضرورة نزع سلاح المقاومة وأن يقوم الجيش اللبنانى بحماية المنطقة الشمالية لإسرائيل!وهم أخيرًا يتصورون أنهم بانسحابهم سيمكنهم تحقيق ما يريدونه من فصل للمسار السورى عن المسار اللبنانى(تتلخص الإستراتيجية الإسرائيلية فى التعامل مع كل دولة عربية على حدة،حتى يمكن التهامها كاللقمة السائغة).

وكل هذا بطبيعة الحال ممكن، ولكن قيادة حزب الله أظهرت وعيًا بحيل العدو، إن كان فى تعاملها مع سكان المناطق المحررة أو حتى مع العملاء الذين سلموا أنفسهم، فلم يتم اضطهادهم أو رجمهم كما فعل الفرنسيون مع المتعاونين مع النازيين.

كما أن لبنان (وسوريا) قد بينا للعدو أن انسحابه ليس هو نهاية المطاف، فهناك قضية مزارع شبعا، وقضية تعويض لبنان عن الأضرار التى حاقت بها نتيجة الاحتلال. وهناك قضية المعتقلين اللبنانيين فى السجون الإسرائيلية، وأخيرا هناك القضية التى لم يطرح الصهاينة أى حل لها منذ تأسيس المنظمة الصهيونية وهى قضية اللاجئين الفلسطينيين الذين يزيد عددهم حسب بعض الإحصاءات عن ٣٥٠ ألف لاجىء.

تساقط الأساطير

وقد بدأت الأساطير الصهيونية تتآكل الواحدة تلو الأخرى، فبدلاً من التوسعية الصهيونية. ها نحن نرى الانكماشية الصهيونية، والانسحاب المذل وبدلاً من أمريكا الممسكة بكل أوراق اللعبة، قالت إحدى الصحف الإسرائيلية (مستخدمة نفس الصورة المجازية) « لقد كسب حزب الله كل الأوراق » .

ولنأخذ مثلاً آخر، أسطورة ماسادا التى يُراد منا تصديقها. لم يقف التاريخ عام ١٩٦٧ بل استمر فطوَّر الإنسان العربى نفسه وتحرَّك عام ١٩٧٣ فتساقط خط بارليف، فهو لم يكن حائطًا منيعًا ضد التخلف الشرقى (كما ادعَى هرتزل)، بل كان مليئًا بالثقوب مثل قطعة الجبن (كما قال ديان)، ومن المعروف أن القوات الإسرائيلية التى حوصرت فى خط بارليف عام ١٩٧٣، استسلمت بطريقة عملية رشيدة للغاية على مسمع ومرأى الصليب الأحمر الدولى والتليفزيون المصرى، وفى أحد هذه المواقع سأل الجنود قادتهم بتهكم إن كان المطلوب هو القتال حتى الموت لإقامة ماسادا ثانية، فأتاهم الرد بالاستسلام على أن يبتسموا أمام عدسات التليفزيون المصرى.

وأثناء انتفاضة ١٩٨٧ لم يتحدث أحد عن ماسادا وإنما تحدثوا عن الطائرة المروحية. وما هى حكاية الطائرة المروحية هذه؟ يقول شارون إنه إن لم يصمد الإسرائيليون فستأتى الطائرات المروحية وسينقلها الإسرائيليون من على سطح السفارة الأمريكية، كما حدث فى حرب

فيتنام عند انسحاب القوات الأمريكية، وقد كتب أحد الشعراء الإسرائيليين (حاييم حيفر) آنذاك قصيدة بعنوان «سنرحل جميعًا إلى أمريكا» ، تبدأ القصيدة بالتصويت فى الكنيست على الخروج الأخير، ولذا «فلنرحل إلى أمريكا الآن/ فلقد للمنا حقائبنا وأمانينا »، ويتدافع الجميع دون نظام (ولاتتزاحموا.. لكلٍّ مكانه/ عفوًا لاتضغطوا هكذا). لقد حزمت الحكومة حقائب الرحيل إلى امريكا. ويتصور رئيس الوزراء عملية الخروج السريع هذه وهو يجلس فى مقعده فى الطائرة، ويروق له المقام/ يعلن أن لا مكان للباقين هنا » ، فلسان حاله وحال وزرائه هو «نحن ومن بعدنا الطوفان»، إن الصورة السائدة هنا عكس صورة البطل فى ماسادا الذى يهلك مع رفاقه :

وبسرعة أخذت الطائرة . . . تطير

أما الدولة

فقد هجرت

وحيدة . . تركت . . إسرائيل

تركت بقية الشعب رغم أننا جميعًا . . فى الرحيل إليها. . راغبين

بعيدًا عن ماسادا المتهالكة، بعيدًا عن صهيون التى اشتعلت فيها النيران، إلى الولايات المتحدة الوطن القومى الآمن وربما الحقيقى.

وقد انتحر عدد من الجنود الإسرائيليين فى جنوب لبنان ولم يكن انتحارهم تعبيرًا عن الإصرار فى الدفاع عن أماكنهم، وإنما كان احتجاجًا

على حرب لا معنى لها من وجهة نظرهم. كما لوحظ تصاعد ظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية. إن أسطورة ماسادا، شأنها شأن الأساطير الأخرى، مثل المقاتل الصهيونى الشرس، واليهودى الشيطان الذى يُسيِّر العالم هى مجرد أكاذيب تهدف إلى تنشيط لهمة وإشاعة عقلية الهزيمة.

ويعبِّر نشيد الهاتيكفاه (الأمل) نشيد الحركة الصهيونية، والنشيد القومى الإسرائيلى، عن واحدة من أهم الأساطير الصهيونية، اسطورة الشعب الواحد الذى يتوق للعودة لوطن أجداده:

« ما دامت روح اليهودى

فى أعماق القلب تتوق

ونحو الشـــرق

تتطلع العيون لصهيون ،

أملنا لن يُفقد أبدًا »

ماذا فعل الجنود الصهاينة بنشيدهم الصهيونى هذا، بدلاً من التفاخر بالعلم الصهيونى القديم غنوا نشيدهم فى جنح الظلام وبسرعة ثم فروا من المستنقع والمأساة والجحيم. ولعلهم فى خروجهم اكتشفوا أن كلمات النشيد اكتسبت معانى ساخرة، فعيونهم تنطلق إلى صهيون بالفعل، ولكن صهيون لايتمتد من النيل إلى الفرات، وإنما اكمشت لتصبح غسرائيل داخل حدود ١٩٤٨ ، بل إن شمال صهيون المجاور لجنوب لبنان، أصبح يعيش فى حالة رعب وانهيار أكثر من ذلك الانهيار الذى حدث

لجيش لبنان الجنوبى: فقد ساد الفزع المستوطنين وغادرت أعداد كبيرة منهم إلى وسط إسرائيل عند ذويهم، وعرض أعداد منهم منازلهم للبيع، أى أنهم خرجوا من شمال إسرائيل مثلما خرجت القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان، والبقية تأتى بإذن الله.

و« الخروج » فى الوجدان اليهودى عادةً مرتبط بالخروج exodus من مصر أيام موسى التوراتى، ثم أصبح يشير إلى الهجرة الاستيطانية إلى إسرائيل، ولكن المصطلح ارتبط مؤخرًا فى الوجدان الإسرائيلى الحديث بواقعهم المتردى. ولذا سميت هجرة الإسرائيليين إلى الولايات المتحدة الخروج الثانى، أو الخروج من صهيون. فهل سيسمّى الانسحاب من بيروت «الخروج الثالث»؟ وماذا عن الخروج الرابع والأخير بإذن الله والذى أشار له الشاعر الإسرائيلى فى قصيدته ؟ !

باب الجهاد والاجتهاد مفتوح، وهذا ما أكده الجنرال الإسرائيلى شاؤول موفاز. فحينما أخبره أحد الصحفيين الأمريكيين أن الأمر قد انتهى بعد انسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان، قال مستنكرًا، عمّ تتحدث؟ إنتهى؟ هذا وضع جديد ولنر ماذا سيحدث؟ ومن يجتهد ويجاهد هو الذى سيقرر طبيعة النهاية، أما الواقعية والاستكانة فنتائجها مضمونة تماما. . الهزيمة النكراء!